إنفجار الأزمة التعليمية

بقلم : هيثم كمال

لقد مر معنا في القسم الثاني من هذه الدراسة ان المناهج التعليمية القائمة في لبنان تكرس نشر الايديولوجية البرجوازية الغربية ، وتشكل حائلا موضوعيا من جملة الحوائل الاخرى التي تقف في وجه امتلاك الطبقات الشعبية الكادحة للعلم ، وبالتالي لامكانية الوصول الى مراكز الدولة الحساسة .

ان المناهج ضمن وضعها المحدد هذا تشكل اذن حاجزا طبقيا صلبا يحكم ما يبودها من تعقيد وحشو واطالة وصعوبة من جهة ، وبحكم ما تمارسه من دور تخريبي لعقلية الطالب ولوعيه الوطني .

نظام الامتحانات في لبنان

وبالطبع فان نظام الامتحانات القائم في لبنان قد وضع على اساس طبيعة هذه المناهج وشكل يعبر عنها بصورة مادية وعلمية .

فهناك ـ كما هو معلوم ـ ثلاث مراحل للتعليم قبل الوصول الى المرحلة الجامعية هي : الابتدائية ، والتكميلية ، والثانوية .

ان كل مرحلة من هذه المراحل مفصولة بشكل نهائي عن التي تسبقها او تليها . وان لنهاية كل مرحلة منها امتحانا رسميا خاصا هو بمثابة عقبة طبقية يضعها النظام امام الطالب اللبناني المنحدر من اصول طبقية كادحة .

وهكذا تبدأ عملية التصفية الطبقية لصلحة طبقة الـ ٤٪ . وننشر فيما يلي عددا من الاحصائيات التي نشرتها وزارة التربية في لبنان وضمنتها في كتاب اسمته « الاحصاء التربوي » للعام الدراسي ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ حتى تتأكد لنا هذه الحقيقة على ضوء الارقام المعلن عنها بصفة رسمية :

في عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ تقدم الى امتحان الشهادة الابتدائية (الرسفيكا) ٥٤،٢٨ طالبا وطالبة نجح منهم ٢٤١٢٧ اي بنسبة ٤٣،١٥٪ . وفي العام التالي ٦٧ ـ ١٩٦٨ تقدم ٥١٢٥ طالبا وطالبة نجح منهم ٢٨١٨٤ اي بنسبة ٧٤،٤٧٪ .

اما في امتحانات البكالوريا القسم الثاني (البريفيه) فقد تقدم عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ : ١٥٥٦ طالبا وطالبة نجح منهم في الدورة الاولى ٦٩٨٣ اي بنسبة ٤٤،٤٦٪ وفي الدورة الثانية بعدم ٤٩٣ نجح منهم ١١٩٨ اي بنسبة ٢٦،٦٦٪

وفي شهادة البكالوريا القسم الاول ـ الفرع الادبي تقدم في الدورة الاولى لعام ٦٦ ـ ٦٧ : ٦٧٤٢ طالب وطالبة نجح منهم ١٦٥٨ اي بنسبة ٢٤،٥٩٪ . وفي الدورة الثانية تقدم ٢٦،٦ نجح منهم ٣٥٠ طالبا وطالبة اي بنسبة ٩،٠٧٪ .

وفي عام ٦٧ ـ ٦٨ تقدم الى امتحانات الدورة الاولى ٧١٧٤ نجح منهم ١٥٩٩ اي بنسبة ٢٢،٢٨٪ . وفي الدورة الثانية تقدم ٤٠٩٧ نجح منهم ٧٣١ اي بنسبة ١٧،٨٤٪ . اما في القسم الاول ـ الفرع العلمي فقد تقدم في الدورة الاولى لامتحانات عام ٦٦ ـ ٦٧ : ٤٣٧١ طالبا وطالبة نجح منهم ١١٦٢ اي بنسبة ٢٦،٥٨٪ . وفي الدورة الثانية تقدم ٢٥٤٤ نجح منهم ٣٨٢ اي بنسبة ١٥،٠١٪ . وفي عام ٦٧ ـ ١٩٦٨ تقدم ٥٥٧٠ نجح منهم ١٢٧٩ بنسبة ٢٧،٩٨٪ . وفي الدورة الثانية تقدم ٢٧١٤ طالبا وطالبة نجح منهم ٦١١ اي بنسبة ٢٢،٥١٪ .

اما في امتحانات البكالوريا القسم الثاني ـ فرع الفلسفة فقد تقدم للدورة الاولى لعام ٦٦ ـ ١٩٦٧ : ٢١٨٨ نجح منهم ٦٧٨ اي بنسبة ٣٠،٩٨٪ . وفي الدورة الثانية تقدم ١١٥٧ نجح منهم ٢٥١ اي بنسبة ٢١،٦٩٪ . وفي امتحانات ٦٧ ـ ٦٨ تقدم ٢٤٢٥ نجح منهم ٩٧٠ اي بنسبة ٣٣،٠٤٪ . هذا في الدورة الاولى . اما في الدورة الثانية فقد تقدم ١٦٨٧ طالبا وطالبة نجح منهم ٤٦٧ اي بنسبة ٢٧،٦٨٪ .

وفي امتحانات ـ فرع الرياضيات ، تقدم عام ٦٦ ـ ١٩٦٧ : ١٤١٣ طالبا وطالبة نجح منهم ٥٩٣ اي بنسبة ٤١،٩٦٪ . وفي الدورة الثانية تقدم ٧٠٦ طالبا وطالبة نجح منهم ١٨٦ اي بنسبة ٢٦،٣٤٪ .

وفي امتحانات عام ٦٧ ـ ٦٨ تقدم ١٧٣٢ نجح منهم ٦٣٦ في الدورة الاولى اي بنسبة ٣٦،٦٩٪ وفي الدورة الثانية تقدم ١٠٠٠ طالب وطالبة نجح منهم ٣٠٧ اي بنسبة ٣٠،٩٠٪ .

فماذا توضح هذه الارقام وما هي دلالاتها العامة ؟ انها توضح امامنا ان هناك تناقضا مستمرا في عدد الطلاب المرشحين الى الامتحانات كلما ارتفع مستوى الشهادة .

فبينما كان عدد الطلاب المرشحين لامتحانات البرسفيكا عام ٦٦ ـ ٦٧ : ٥٤،٢٨ طالبا وطالبة نراه في امتحانات البريفيه ١٥٥٦ . وفي امتحانات البكالوريا ـ قسم اول ـ فرع ادبي ١٦٥٨ . وفي امتحانات البكالوريا ـ قسم اول ـ فرع علمي ٤٣٧١ وفي امتحانات القسم الثاني ـ فرع فلسفة ٢١٨٨ وفي فرع الرياضيات ١٤١٣ .

فمن هم هؤلاء الطلبة الذين يغادرون بصورة متزايدة مقاعد الدرس ومن هم الذين يستمرون ولا نطالهم عمليات التصفية ؟

واضح ان الطلاب الذين يتناقصون بصورة دائمة هم ابناء الطبقات الشعبية الكادحة الذين يعجزون عن الاستمرار في دراستهم لاسباب ياتي في طليعتها عجزهم عن تحمل نفقات العلم والاقساط من جهة ، وعجزهم عن العمود امام المناهج والامتحانات بحكم ما يتمثل فيها من صعوبة لا يتجاوزها الا ابناء الطبقات الغنية الذين يملكون اللغة الاجنبية والقادرون على تحمل النفقات بكل يسر وسهولة (راجع الاسباب التفصيلية لطبيعة المناهج وتصميمها الطبقي في القسم الثاني من هذه الدراسة) .

ان نظام الامتحانات وفقا لذلك هو ايضا مصفاة طبقية عبر اربع مراحل : الرسفيكا ـ البريفيه ـ البكالوريا ـ قسم اول ـ بكالوريا ـ قسم ثاني .

وفي كل مرحلة يتناقص عدد الطلاب المتحدرين من اصول طبقية فقيرة حتى انه بالكاد يصل البعض وهم نسبة ضئيلة في الغالب الى تجاوز حواجز الصفاة الطبقية (الامتحانات) ليكملوا دراستهم الجامعية .

وبالرجوع الى الطابع العام للطلاب الذين يدرسون جامعيا وهم في اصولهم الطبقية ابناء كادحين وفقراء لوجدناهم في معظمهم من حملة شهادة التوجيهة المصرية او الوحدة السورية ، مما يبرهن لنا بكل جلاء عن الاسباب الطبقية العميقة الكامنة وراء موقف النظام من انهاء المعادلات لمثل هاتين الشهادتين بوصفهما ـ بالضبط والتقني قائم بحكم هامشية قطاعي الصناعة والزراعة في الاقتصاد اللبناني ، ولما كان قطاعات الخدمات ذات امكانية محدودة على تامين فرص الشغل فان نكدس المخرومين من فرص التعليم سوف تتعمق وتزداد بشكل اخذ بالاطراد .

تساعد على ذلك تسرب ابناء الطبقات المسحوقة الكادحة الى الجامعات بعد ان ظلت طوال حكم الانتداب والخمسينات الى حد بعيد حكرا على ابناء الطبقات الرأسمالية .

وهكذا فان حل ازمة المتعلمين وحملة الشهادات العليا سوف تبقى مستعصية الحل في ظل هذه الخدمات المحدود والقدرة على التشغيل وتامين فرص العمل . ومن هنا فان النظام يسعى دائما وبشتى الوسائل لوضع حواجز جديدة تحول دون ازدياد نسبة المتعلمين والخريجين لان مثل هذه الزيادات المطردة ترهقه ، وتسبب له ازمة غير قادر على تحملها بحكم طبيعة تكون الاقتصاد اللبناني ، وتركيبه المحدد في ظل علاقات التبعية للاحتكارات الامبريالية .

الخلفية الحقيقة لانفجار أزمة التعليم

ان كل ما سبق ذكره ـ ولو بايجاز شديد ـ بشكل في تقديرنا الخلفية الحقيقية والعلمية لظاهرة تفجر ازمة التعليم في لبنان كل سنة .

اما ما يقال عن « الجبل الخامل » و « الشغب » و « الغوغاء » والى ما هنالك من مصطلحات وألفاظ دمغاوجية تحتل حيزا في قاموس النظام في معرض تصديه لتفجر انفجارات الطلاب ومطالبهم العادلة في كل مرة رفعوه وناضلوا من اجله ، ان كل ذلك ليس الا محاولة تضليلية مزالنظام للتنصل من الاسباب الجوهرية الكامنة وراء الازمة ، ولاتهام الواقع نفسه بان ابناءهم لسوا اصحاب قضية عادلة ولذلك عليهم ان يأخذوا جانب النظام لا جانب التقدم والتلاحم مع ابنائهم . ان النظام في تجاهله بكل هذا الفصل بين واقع التعليم والواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لتركيب نظام الحكم اللبناني ، انما يدافع عن وجوده الطبقي لتزوير حقيقته . ومن هنا تنبع الحاجة الملحة الى ضرورة ربط المسالة التعليمية بمجمل التركيب الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ربطا ثوريا علميا صحيحا حتى نعود على النظام امكانية عزل المسالة عن موقعها وارتباطها الطبيعي .

وبالرجوع الى آخر الامثلة عن موقف النظام من هذا (ونعني خطاب الرئيس سلام امام جمعية التجار في بيروت ـ الاسبوع الماضي) ليوضح لنا ان الرئيس سلام كان حريصا كل الحرص على اظهار الدولة بمظهر علمي ديمقراطي عندما اتاحت للطلاب فرصة الظاهر في بداية الامر . الا انه عندما لمست بان عناصر « الغوغاء » و « الشغب » و « الفوضى » (على حد تعبيره) قد تفاعلت ، وكان موقف السلطة قد اغراها بمزيد من التفاعل عمدت السلطة الى قمع التظاهرات بوسائل العنف !!

ان الرئيس سلام ، بكل بساطة ، يعبر عن موقف الطبقة الحاكمة التي ترى في خروج الطلاب الى الشارع للمطالبة بحقوقها المشروعة نوعا من « الفوضى » .. نوعا من « الغوغاء » .. وكيف لا والطلاب بهذا يتمردون على مشيئتها في تقرير الامور كما هي دون مس او تعديل فيها فانه يعبر ببساطة محاولات « خطرة » لاجراء مس او تعديل في التركيب العام للنظام اللبناني . طبعا انه التجار لا يتظاهرون ، ولا يكلفون انفسهم مشقة الخروج الى الشارع (باستثناء عندما تهدد الدولة الى منع سياراتهم من الوقوف في مرائب

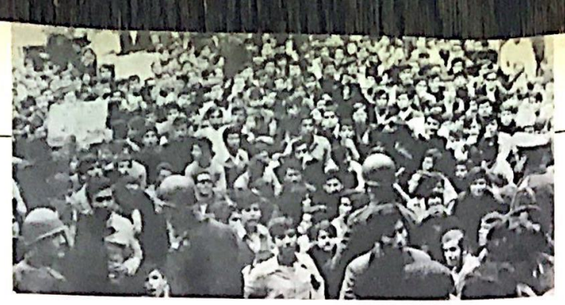

الوطنية بمجمل النضال العام اذن هو الضمانة التي يجب توفيرها منعا لحرفها عن اهدافها ونتائجها الصحيحة .

وحدة اليسار مطلوبة بالحاح

ان هذا الربط الثوري ، وتوفير المضمون الجذري لنضالات الحركة الطلابية الوطنية امران لا يمكن ان يتحققا هكذا « بعشية قدرية » او بالركون الى العفوية وتكريس الانجذال والتجريبية سلوكا عمليا . ولا يمكن ان يتحققا بواسطة المناشدات العاطفية والتي تاخذ صفة التمني .

ان ربط النضالات الطلبية الطلابية بالنضال العام ، وتوفير المحتوى الثوري لها لا يمكن ان يتوفرا الا اذا توفرت صيغة الوحدة الجبهوية الملاحمة للنضال اليساري المختلفة داخل الحركة الطلابية الوطنية .

ان الوصول الى هذه الصيغة الجبهوية امر ليس مستحيل التحقيق عندما تتوفر لدى الفصائل القناعة العلمية بضرورتها وأهميتها . اما عندما تبقى الوحدة اليسارية مجرد « دعوة استهلاكية » او « لرفع العتب » او تطرح « بطريقة تعجيزية » ومن منبر فوقي فهذه امور من شانها ان تبقي اليسار مصدوب العينين عن رؤية النضال العام ، والنضالات الجزئية المطلبية المختلفة وفي شتى القطاعات رؤية علمية واعية .

مستقبل الحركة الطلابية رهن بمستقبل اليسار اللبناني

ان الحركة الطلابية الوطنية سوف تبقى في تحركها النضالي العام معرضة لعديد من الثغرات السلبية طالما افتقرت الى وحدة اليسار الطلابي وتلاحمه . لذا فان مستقبلها على المدى المقبل رهن بمستقبل اليسار اللبناني نفسه ، اي بقدرته على تجاوز ازمته القائمة .

ان وحدة اليسار اللبناني وفق صيغة برنامج الحد الادنى هي التي تقرر مستقبل الحركة الطلابية واقفها النضالي .

ان اي بحث لازمة النضالات الطلابية الوطنية ولواقع تفرقها بمعزل عن تفهم ووعي ازمة اليسار اللبناني عامة يبقى بحثا بعدا عن مس الجذور الحقيقية لواقع تميع النضالات الطلابية في معظم الحالات وتمكن النظام من احتوائها وركوب موجتها ، وتنفيس زخمها .

تولد وحدة العمل وحدة الفكر

واذا كان هذا التميع الحاصل يعزى تارة الى ضعف التنظيم الطلابي ، وتارة اخرى الى قوة اليمين والعناصر الانتهازية والى ما هنالك من تفسيرات مشابهة . الا ان كل ذلك لا يقدم التفسير العلمي الصحيح لظاهرة تميع النضالات وتمكن النظام من ركوب موجتها .

ان العقوبة القائمة ، وصيغ الارتجال التي يعمل وفقها ، وظاهرة التفسخ والتمزق في الجسم الطلابي الوطني . ان كل هذه الظواهر ناشئة من واقع محدد هو عدم توفر الرؤية الفكرية تقود بالطبع الى ممارسات عملية متباعدة .

ان غياب وحدة الفكر يؤدي الى غياب وحدة العمل والارادة والتوجه .

وهكذا نجد ان الغفوية ، والارتجال ، وعدم اعتماد تكتيك ذكي ومرن برفع الشعارات المناسبة في الحالات المناسبة ، ان كل ذلك ظواهر مردها بشكل تلقائي الى انعدام الوحدة الفكرية لليسار.

طبعا نحن هنا لا نطالب بوحدة فكرية كاملة ، فهذا امر مستحيل عمليا وعلميا . ولكننا نراهن على توفر وحدة فكرية ضمن الحدود الدنيا التي تسمح بوحدة عملية والتي هي بالطبع لا تتناقض مع الاستقلالية الايديولوجية النسبية لكل فصيل .

ومن هنا فان كافة الاشكال العملية، والاساليب النضالية المختلفة التي يمكن اللجوء اليها مسائل من السهل توفيرها عندما تتوفر الرؤية الفكرية والسياسية الموحدة ضمن صيغة الحد الادنى على الاقل .

ان التقليل من اهمية تحالف اليسار ، او اعتبارها مسالة ثانوية لا تستحق اي اهتمام بدل على ضيق افق اصحاب المؤمنين بمثل هذه النظرة ان لم نقل على انتهازيتهم .

وعلى هذا تاكد يوما بعد يوم ، وعبر التجربة الحية ، والممارسة العملية الحاجة الماسة والملحة لمبادرة الفصائل اليسارية نحو الالتقاء في صيغة نضال موحد تتوفر اسسه السليمة والمتينة من خلال ما يجب ان يسبقه ويمهد اليه من اجواء حوار ديمقراطي موضوعي هادف .

هـ.ك

جدول رقم ـ ١ ـ

توزيع المدارس الرسمية حسب المرحلة التعليمية والمحافظة خلال العام الدراسي (١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) :

المحافظة	ابتدائية	متوسطة	ثانوية	المجموع
بيروت	١٨	٢٨	٦	٥٢
جبل لبنان	٢٧٠	٩٤	٨	٣٧٢
لبنان الشمالي	٢٣٠	٩٨	٩	٣٣٧
لبنان الجنوبي	٢٣١	٧٨	٦	٣١٥
البقاع	١٥٨	٥٢	٥	٢١٧

جدول رقم ـ ٢ـ

توزيع المدارس الرسمية حسب المرحلة التعليمية والمحافظة خلال العام الدراسي (١٩٦٨ ـ ١٩٦٩) :

المحافظة	ابتدائية	متوسطة	ثانوية	المجموع
بيروت	١٨	٣٠	٦	٥٤
جبل لبنان	٢٤٦	١٢١	٨	٣٧٥
لبنان الشمالي	٢٢٩	١١٤	٩	٣٥٢
لبنان الجنوبي	٢١٧	٨٨	٦	٣١١
البقاع	١٦٤	٥٧	٥	٢٢٦

جدول رقم ـ ٣ ـ

توزيع افراد الهيئة التعليمية في المدارس الرسمية حسب المحافظة والجنس ودرجة المدرسة خلال العام الدراسي (١٩٦٨ ـ ١٩٦٩) :

المدارس الابتدائية والمتوسطة

المحافظة	ذكور	اناث	المجموع
بيروت	٢٩١	٨٢٥	١١١٦
جبل لبنان	١٨٢١	١٠٧٦	٢٨٩٧
لبنان الشمالي	١٧٥٨	٥١٧	٢٦٥٨
لبنان الجنوبي	٢٤٤١	١٥٩٨	٣٣٥٦
البقاع	١٤١١	٣٧٠	١٧٨١

المدارس الثانوية

المحافظة	ذكور	اناث	المجموع
بيروت	٢٠٨	١١٢	٣٢٠
جبل لبنان	٢٣١	١٠٣	٣٣٤
لبنان الشمالي	١٩١	٥٨	٢٤٩
لبنان الجنوبي	١٣٥	٣٣	١٦٨
البقاع	١٢٢	١٣	١٣٥

● هذه الجداول مأخوذة من كتاب الاحصاء التربوي الذي اعدته دائرة الاحصاء في وزارة التربية .